معتاد (١ عيشاً دليل (٢ وكل من قد تغرَّبْ بالحق صيطه (٣ فضيل
لان الاله هو رفيقه في الليل وفي النهارْ
تمّ القصيد يا رفيقي مكتوب بفيض الدموعْ وانا بشكًّا (٤ غميقي (٥
مصطنظر (٦ منك الرجوع لا علم معنا حقيقي ولا سلا (٧ بغير قشوع (٨
حتى انظرك بالحقيقي قدام الاله البشَّارْ (٩

الحقوق البَدَويّة في شرقي الاردنّ

بقلم حضرة الخوري بولس سلمان الروم الملكي الكاثوليكيّ (تابع)

٦ عن الدم

ان البداة قد وضعت حدًّا لمطامع العظماء والظالمين بما سلّطت عليهم من القُضاة العادلين . ولا ريب أنّ شراسة الأعراب وسوء طباعهم وما فُطروا عليه من الكبرياء يحملهم على إشهار السلاح وإهراق الدماء. فلذلك قال احد فقهائهم: العرب هم كالشرارة المشتعلة تُفني بدقيقة ما حولها . وقد جعل الحكام عقاباً شديداً للمجرمين لما تجنيه يدهم من إهراق الدماء . فالسنّة عند العرب هي ان الدم يطلب الدم كما بيّناه سابقاً في باب الانتقام . وربّما لم يقدر المرء على اخذ ثاره فيطلب الدية بحسب الشريعة المحمّدية والدِّيَة تسمّى عند العرب حدّة وعقلة وسُميت عقلة لانها تعقل الدماء عن ان تُسفك والدية هي ٣٣,٣٣٣ غرشاً . ومن قلع عيناً او قطع يداً او كسر رجلاً يدفع نصف الدية ومن اوقع ضرراً بالعضوَين معاً يدفع الدية كلها . ويجرح

١) متادًا (او متادَ عيشي) ٢) ذليل ٣) صيتهُ
٤) بشكّ ٥) عميق وقد مرّ ٦) مستنظر
٧) سلوى ٨) مصدر قشعهُ عامية بمعنى رآهُ وابصرهُ
٩) اي البشّار المبهج

ليس له شيء معلوم فانهم يستدعون الطبيب المعروف في القرى فيأتي ويرى جسامة الجرح وخطرهُ ومحلهُ في الجسم ويحكم بدفع دية معلومة ورأينا اناساً يقيسون الجرح ويسبرون غورهُ كي يحكموا في الدية . ولما كانت المرأة عضواً ضعيفاً وكانت إهانتها او اتلافها يُعدُّ جرماً كبيراً قد وضعوا قانونا صارماً لقاتل المرأة او العذراء . فان المجرم يدفع اربع مرّات اكثر من قتل الرجل . على انَّ العرب لا يدفعون ديَةً من الذهب او الفضَّة ولكن المواشي والاغنام فيقدّرون ثمن المواشي ويدفعونها لصاحب الحقّ

فاذا ذبح اعرابي عدوَّه يسعى حالاً في طلب امير كبير يحتمي في ظلّهِ ويعتصم بعقلهِ هو وعاشيتهُ خوفاً من ان يُقتَل وفقاً لسنة الانتقام العاجل لأن اهل القتيل لهم حقّ مدة ثلاثة ايام ان يأخذوا ثأرهم ويذبحوا القاتل واهلهُ ويهدموا بيتهُ ويعقروا غنمهُ . فلذلك يستجير القاتل باحد الشيوخ لئلا يُصبح فريسة الانتقام . فالامير يلتزم بان يبذل جهد طاقته لتخليص المجرم من طائلة الموت ولو كان القاتل من اعداء العشيرة او عدوَّهُ او قاتل ابنهِ او احد اقربائه لان الشهامة الأعرابيَّة تحتم عليهِ بان يحامي عن الضعيف المستجير . ومن غريب الامور ان القاتل في هربه يلتجيء الى رجل ضعيف إمَّا جهلاً منهُ بذلك او خوفاً من لاحقيهِ فيكون كمن استجار من الرمضاء بالنار . فماذا يصنع المجير وكيف يدافع عن المستجير . ففي هذه الحالة الحرجة يقوم المجير الضعيف ويلتجيء هو نفسه الى امير كبير يُعرَف بمضاء عزمه ورفيع اعمالهِ وكرم اخلاقه وبسالته وعدد رعيَّته فيقولون : « فيّض فلان الدخلة على فلان » : فالمجير الجديد يرسل وفوداً الى اهل القتيل ويقول : « أعطونا عَطوة الى حين المصالحة » فتصير الهُدنة الى زمان محدود . واذا لقي اهلُ القتيل المجرمَ فلا يُنزلون بهِ ضرراً . وبعد انتهاء زمن الهدنة يقدر اهل القتيل ان يقتلوا المجرم وكثيراً ما تؤجَّل العَطوة الى أمد بعيد او الى شهر او شهرين او سنة

واذا وصل المستجير امام الخيمة وقال لصاحبها : « انا دخيلك » فقد صار دخيلاً وان لم ينطق لهُ بجواب . وان تمسَّك باطناب الخيمة او وقف امام الخيمة فقط فقد عُدَّ دخيلاً . واذا مسك عمود الخيمة المدعوّ واسطاً او جلس على فراش صاحب البيت وقال : « انا دخيلك » وكان قاتلاً احد افراد عشيرتهِ فلا يضرُّهُ بأذى وان قتلهُ احدٌ

خارج الخيمة فالقاتل يضطرُّ الى دفع دية الدم وحق الدخلة . لان المقتول يُعَدُّ دخيلًا . ولو سقط القتيل على مدًى بعيد من الخيمة فلا يُعتبر دخيلًا واذا سقط في موقع قريب فانَّهُ يُدعى دخيلًا . وهناك تميزات صعبة يعرفها القضاة . ان الشيخ يأخذ هراوةً ويضربها من باب الخيمة الى مسقط القتيل ثم يقيسون المدى من جهة القتيل ومن جهة مسقط الهراوة فان وجدوا المسافة بين الخيمة ومسقط الهراوة اكثر طولًا من المسافة القائمة بين مسقط الهراوة والقتيل فلا يُعدّ القتيل دخيلًا وان وجدوها اقلّ طولًا فهو دخيل . وهناك كلام طويل لا حاجة الى ذكره

غير ان القاتل ينهزم حالاً من وجه اهل القتيل ويتجو هكذا من الانتقام فيقولون في حديثهم : « فلان جلا الى ارض كذا ونزل في عرب كذا » اي رحل الى طلب الحماية . وحينما ينزل القاتل عن فرسه ويجلس على فراش المجير يقول له : « انا دخيلك بعيالك وجلالك من الحظّ المنكود والسيف المجرود والظالم الحقود والكاذب ما لهُ مولود » . فيقول له : « يا هَلَا أبشرْ بالعزّ وطيب المنزل » فلا يهتمّ القاتل بشيء بل يعيش بالصفاء وهناء العيش . فالسعي كلهُ يعود على المجير لأنَّهُ يرسل بعثات متتالية الى اهل القتيل كي يقبلوا المصالحة ويأخذوا دية الدم . على انهم يرفضون الصلح ويطلبون الدم بالدم . لانهم يتذكرون بالدم المهدور الصارخ الى السماء الطالب الانتقام فيعود الوفد الاول خائباً . فلا ييأسنَّ المجير من ذاك الجواب المؤلم لان هذه هي العادة عندهم . وكثيراً ما يختار اهل القتيل رجلًا مشهوداً له بالبسالة والاقدام ليأخذ الثأر فيأخذون قطعة من قميص القتيل ويغمسونها بالدم ويضعونها على راس رمح . فيحملها هذا الرجل المختار ويطوف بين الحيّ ويقول : « انا خصم القاتل فلان والله وبيت الله الكريم لاطوينَّ البرّ والبحر لأجد القاتل واسفكنَّ دمهُ . لان الدم بالدم » . وبعد ايام يعيد الكرَّة فيرسل اليهم وفداً اكبر كي يصلحوا ذات البين ويأخذوا الدية فيرجع الوفد مكسور النفس حزيناً وبعد المرَّة الثالثة ان ابى اهل القتيل المصالحة فتلك دلالة على انهم لا يريدون الّا الانتقام . فيجب على القاتل حينئذ ان يهرب في ظلمات الليل الى بلاد بعيدة ويعتصم بقبيلة شهيرة . وفي غالب الاحيان يصير الصلح بعد المرة الثالثة . لان العرب حينما يشاهدون كبراء البيداء متذللين امامهم تلين ناصيتهم وتتحرك افئدتهم وترتفع فيهم العواطف النبيلة .

فيضربون موضعاً للصلح ويبنون خيمة كبيرة كي يجتمع فيها اهل القتيل والقاتل . ولقد حضرنا جلسة المصالحة في السلط وهي مثال لما يجري في البيداء كلها ودونكم وصفها

خرج قوم من المسيحيين الفقراء لصيد الخنازير في غور الاردن في اواخر سنة ١٩١٣ . فهناك بالقرب من المياه الجارية مستنقعات تسكنها الخنازير ويتكاثر فيها بسرعة عجيبة . فلما انتهى هؤلاء الصيادون الى غابة كثيفة ابتعد واحد منهم يشرب جاثياً على ركبتيه وحنا راسهُ ليشرب واذا برصاصة اصابتهُ في راسه فسقط مجندلاً وذلك ان صيادًا منهم رأى خيالاً فظنهُ خنزيرًا فاطلق عليهِ الرصاص فارتعد الصيادون وحلَّت فيهم الرعدة فربطوا القاتل بالقيود وقادوه الى السلط . واتوا بالقتيل الى بيتهِ . فيا لها من ساعة تقشعرُّ منها الابدان وترتعد منها الفرائص . فاخذت النساء تصيح وتندب وتشقّ ثيابها وتنتف شعرها . أجل انها لمصيبة كبرى وكارثة عظمى لان اولاد القتيل الفقراء يصبحون ايتاماً ولا احد ينظر اليهم بعين الشفقة والرحمة

وبعد زمان قليل سعى الكهنة مع بعض الوجوه كي يُصلحوا الجرم بدفع الدية . فكان يوم المسالمة أحدًا فوفد كهنة السلط على اختلاف طوائفهم وقدم عدد كبير من جلّة القوم كي يحضروا المصالحة . وكان في صدر البيت اهل القتيل واقاربه . وكان حينئذٍ ثلاثة رجال يمثلون اهل القتيل . فبعد ان هدأت الحركات وسكنت الاصوات قام رجل ينوب عن القاتل ووقف امام اهل القتيل . على ان القاتل نفسهُ يتقدم في بعض الاحيان الى اهل القتيل . وكيف تصف هيئة المجرم في تلك الساعة ! يتقدَّم متذلّلاً متخشّعاً فيفرد عقالهُ عن راسهِ ويضعهُ في رقبتهِ يتقدَّم مكشوف الراس حافي القدمين ليس عليهِ الّا ثوبٌ طويل يغطي جسمهُ ثم يجثو امام الكبير من اهل القتيل ولا ينطق ببنت شفة . فيسلك واحد من اهل القتيل عقالهُ الموضوع في رقبته ويشدّهُ بعنف كأنهُ يريد ان يخنقهُ ويهزّ راسهُ ثم يقول لهُ ثلاث مرات : « مات فلان اين هو ؟ انت قتلته . اعندك هو ؟ » . فيجيب بصوت مرتفع : « عندي » . والسكوت ساند والعيون شاخصة والاعناق مشرئبّة . ثمَّ يقولون له : « اتدفع ما نطلبهُ منك ثمن الدم ؟ » فيجيب : « نعم اطلبوا ما تشاؤون » . فيطلب الاهلون مطالب باهظة لا يقدر على حملها : « تُقدّم لنا ابنتين من بناتك ام من بنات عشيرتك » فيقول : نعم . ويطلبون غنماً وجمالاً وبقرًا وارضاً وسيفاً وبندقية

بما يعادل ٣٣,٣٣٣ غرشاً . وكلما كان الطلب عسراً يكون الجواب سريعاً ليوضح للجميع انهُ مستعدّ ليقدم نفسهُ فداء عن القتيل . وحينما ينتهون من سرد المطالب القاسية ينهض الحاضرون ويقول اكبرهم : « يا فلان طلبتَ حقك ولك ان تطلب اكثر من ذلك . ولكن ألا تترك شيئاً من شان الله » فيقول : قد تركت ما طلبت لاجل الله . ويقول آخر : ولاجل الشيخ فلان ألا تترك شيئاً ولاجل فلان . ومن شان خاطر فلان . . . هكذا كل شيخ يخفض من المطلوب الى ان يصير المطلوب معقولاً وقليلاً . وفي حفلة الدم التي حضرناها طلب اهل المانت الدية الاسلاميَّة وكانوا يخفّفون المبلغ حتى صار ثمانين ليرة فرنساوية . ويقدّمون علاوة عن الدية عشرةً من العبي وخرفاناً وسكّراً وارزاً وغيره مما تجود به نفسهم . وبعد ذلك يصلح اهل البيت وليمة للحاضرين يسمونها « ذبيحة الدم »

ولا ريب ان القارىء اللبيب يستغرب عادة العرب في طلب بنات ديةً عن نفس القتيل . أجل وقد ورد مثل ذلك في شريعة حمورابي حيث كانوا يطلبون نفوساً بشرية بدلاً عن نفس القتيل والعرب الحاليون يتركون الدية كلها ولا يتركون البنات المطلوبة لان الدم بالدم يفتدى

فبعد ان يقف رأيهم على شيء يقوم اقرباء القتيل وينهضون القاتل او وكيلهُ ويقبّلون لحيته ويضعون الكوفيَّة العقال على راسه ويجلسونهُ بالقرب منهم . ولا بدَّ لكل من الفريقين ان يقدّم كفيلاً على صدق مصالحته وهذان الكفيلان يحملان الفريقين على حفظ المواعيد ودفع المطالب . ويعقدون لاهل القتيل راية بيضاء ويقولون : « بيّض الله وجه فلان »

ولقد يوجد بعض الاختلاف بين العشائر في تأدية العقلة فعرب الحويطات والمجالي يطلبون من بعضهم الف غرش وسلاح القاتل وبعض النعاج وفرساً . وعرب الحمايدة يدفعون خمسين نعجة لصاحب الحق . وعرب بني صخر يقدمون الى سكان مادبا مئتين وخمسين ريالاً . والعدوان يطلبون اربعين بعيراً وبندقيَّة وسيفاً . واذا قُتلت احدى النساء فالقاتل او عشيرتهُ يدفع دية مضاعفة واذا كانت المرأة حبلى يقدّمون دية شخصين . ولقد يخفّف جرم القاتل اذا قتل قريبهُ عن غير تعمّد كما ذكرنا في الحادثة السابقة

واذا سار اعرابي ووجد قتيلًا على الطريق عليه ان يرجع ويخبر اقرب الشيوخ بما رأى: « يا شيخ فلان وجدتُ فلانًا قتيلًا في ارض كذا ». فيمضي الشيخ الى حيث القتيل ويأتي به الى اهله ويسعى بمعرفة غريمه ويسأل اهل بيته عن اعدائه . فلا شيء يُخفى في البادية لان القاتل يترك اثرًا بعده . وكثيرًا ما يطلبون قفاة الاثر ليعرفوا القاتل فهؤلاء يعرفون جنس القاتل ان كان رجلا او امرأة ان كان شابًا او كهلًا . ومنهم من يعرف المرأة ان كانت عذراء او متزوجة كما ذكر لنا ذلك بعض الثقات . واذا عُرف القاتل يقول الشيخ لاهل القتيل: « اطلبوا دم القتيل من فلان » . وربما اخذ القاتل نفسه علمًا وطاف به حول الخيم قائلًا: « أخبروا العرب اني انا قاتل فلان من اراد اخذ الثار فليصوّب سهامه نحوي ». فعشيرة القاتل ترتاح فكرًا ولا تخشى من أضرار تلحق بها لان القاتل افرز نفسه عن عشيرته فهو مسؤول وحده عن جريمته

وشيخ العشيرة يستطيع ان يحرم بعض المجرمين من حقوق العشيرة بحيث انهُ اذا قُتلوا فلا يُطالَب القاتل بدمهم . فان اصحاب المنكرات وارباب الفواحش الذين لا يرعوون عن غباوتهم يتهدّدهم الشيخ ويوبّخهم على قبح سيرتهم مرّات عديدة فان لم يرتدعوا يطردهم من عشيرته وذلك يكون بحضرة وجوه القوم فانهُ يفرش عباءته ويتبرأ منهم وهذا الطرد القاسي يسمى « انفراش العباءة » او « نشر النفس ». فبهذا الكلام يعلن لجميع العشيرة وللاعراب كلهم ان المجرم قد قُطع من حقوقه المدنية وانهُ يُعدّ كوحش الصحراء فمن قتله لا يطالب بدية . غير ان عددًا من هؤلاء الاشرار يرتدّون عن فواحشهم فيأتون في ايام فرح كعيد بيج او يوم تطهير او عرس ويقبّلون يد الشيخ ويسترحمون الحاضرين بان يصفحوا عن سيرتهم الماضية . ويقيمون على انفسهم شروطًا قاسية فيُردّون الى حقوقهم الاولى . وكذلك المتيّل وشارد الثلاثة(١ وشاهد الزور لا يقام لهم اعتبار فاذا قُتلوا فليس لهم دية . والعرب الاقدمون يزعمون ان ليس لدم العبيد ديةٌ فيقولون: دم العبيد يطلول كقول الشاعر:

دماؤهم ليس لها طالبٌ ... بطلواة مثل دم السيد

وكذلك العرب الحاليّون يقتفون اثار من سبقهم في رأيهم هذا

(١) اذا ترافق ثلاثة انفار في طريق وخرج عليهم لصوص او أعداء وهرب احدهم وترك رفاقهُ فهذا الهارب يدعى هارب الثلاثة او شارد الثلاثة . وهو مكروه مرذول

وقلنا في ما سبق من الكلام ان الذين تصيبهم سهام الانتقام هم اهل القاتل او اقرباؤه الى الدرجة الخامسة . اي ان ابا القاتل وجدّه واولادهُ واولاد اولاده يُقتَلون اذا وُجدوا في سَوْرة الغضب وكذلك اولاد العم واما الاباعد من الأُسرة كابن الخالة فلا يؤذى بضرر بل يقدم « بعير النوم » ويبقى في خيمة غير خائف صولة الاعداء

٧ من الطنيب

الطنيب عند العرب كلمة مشتقة من الطنب وهو حبل الخيمة لان الخائف اذا انهزم امام عدوه ولقي في طريقه بيتاً مرفوعاً يمسك باطناب البيت فيصبح دخيلا ويضطرُّ ربُّ البيت بان يدافع عنهُ فهذا هو المعنى القديم المستعمل في معجم اللغة . غير ان الطنيب في ايامنا الحاضرة هو الجار كما جاء في شعر السموأل :

وما ضرّنا أنّا قليل وجارنا عزيز وجارُ الاكثرين ذليلُ
لنا جبلٌ يحتلُّه مَن نجيره منيعٌ يرذُ الطرفَ وهو كليلُ

ومن امثال العرب : من تعلّق بأطناب بيتي فهو آمن من ذمّتي . ومن قولهم ايضاً : اطلب الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق . والطنيب هو بمعنى الجار

ويعتبَر المرء طنيباً اذا علّق بعض آلات صناعته على طُنُب من أطناب الخيمة لانه يصبح جاراً ومستجيراً . وهذه العادة كانت جارية في عهد الجاهليين فكان الرعاة يعلّقون جرابهم والشعراء ربابهم وعودهم والحارثون سكّة حراثتهم . والفوارس كانوا يغرزون رمحهم او سيفهم بجانب الخيمة يشيرون بذلك على انّهم اصبحوا جيران اهل البيت . ومنهم من يكتفي بالكلام فقط فيقول : « يا شيخ فلان يا ابا فلانة انا طنيبك » . فيقول له : « يا هلا بك » . فمن الاعراب من يترك عشيرتهُ وبيت ابيه فيحمل خيمتهُ ويرفعها الى جانب شيخ عظيم . ويكون ذلك اذا خشي المرء عدوّاً لا يقدر على مقاومته او وجد ضدّهُ عدداً وافراً من الاعداء لا يستطيع الى منازلتهم سبيلاً او قدم طلباً للرزق والشغل عندهُ في حراثة ارضه . وهذا ما كان يجري في الاجيال الوسطى على عهد الأمارات (féodalité) وذلك ينشأ من اجتماع بعض الناس الذين يلتفّون حول امير ذي سطوة واقتدار فيصبحون من رعاياهُ يستخدمهم لغاياته

ومصالحه الشخصية . فهم يخدمونه وهو يدافع عنهم ويقدّم مالاً وارضاً وربما زوّجهم ببنات عشيرته . فما من احد يضطرّ الى مجاورة الاعراب الّا يكون ضعيفاً او فقيراً او بائساً . ويقول العارفون بعادات العرب ان الضيف يسمّى ضيفاً مدة ثلاثة ايام وان طال مكثه عُدَّ طنيباً . وكم من مرّة رأينا عدداً وافراً من الفقراء نزلوا بالقرب من امير كبير فسُمّوا باسمه وتطبّعوا بطبائعه وقد نسوا اصلهم ونسبهم بعد طول الزمان

ومن يقبل المدافعة عن غيره يجب ان يكون غنياً ذا ثروة طائلة كريم الاصل جواداً . فان استطاع المرء ان يدافع عن طنيبه يقول له : « مرحباً بك وبقدومك أبشر بالعزّ والهناء » . ثم يوصي اقاربه بان يكرموا الطنيب ويقدموا له دلائل اللطف والوداد وان كان عاجزاً عن حمايته يقول له : « إختر غيري اخير مني » . وكثيرون من الأسر الفقيرة تستجير بالعشائر الكبيرة فانّ عدداً كبيراً من عرب الشرارات قد استجاروا ببني صخر . والقبائل الكبرى المعروفة بكرمها تقبل عدداً وافراً من المستجيرين حولها . يحكى ان امرأة غريبة من جبل نابلس نزلت طنيبة عند قفطان الحامد . وفي وقت الحصاد اخذ الحصّادون يحصدون القمح وهنّ تلتقط وراءهم على انها تعدّت حقوق اللّقط فصارت تسرق من البيادر . فرآها احد الحصّادين وضربها بكتلة تراب على ظهرها فجرحها فاخبرت قفطان بذلك وقالت : « انا طنيبتك خذ حقي من ضاربي » . فاستاء جداً وامر الحصّاد ان يقدّم لها ثلاثة احمال حنطة من حصّته وقال له : كيف تضرب طنيبتي وتهينها يا عديم الشرف . قال : هي سارقة . قال : أخبرني عنها وانا اردعها . ثم لما ذهب الحصّاد شتم المرأة وزجرها وقال : من استجار بشيخ يا ابنة اللئام عليه ان يظهر بمظهر الاحترام . لو تعهدتك دفعة ثانية تسرقين او سمعت عنك ما لا يُسرّ القلب فأطردك من امام وجهي ومن عشيرتي

وفي ايّامنا الحاضرة نجد بعض الأسر المسيحية في شرقي الاردن تعزو نفسها الى غير عشيرة وتسمّى باسمها فنصارى الكرك يُسمّون باسم المجالي واسرة النمور في السلط ينتمون الى العراملة وهذه الاخيرة هي عشيرة اسلامية مشهورة برجالها وشريف مناقبها

٨ من القصير

القصير هو الذي يبني خيمتهُ في منتصف الخيم المختصة باحدى العشائر القوية وكثيرًا ما يستعمل العرب كلمة القصير بمعنى الطنيب . فالقصير يترك عشيرته ليسكن عند غير عشيرة لاسباب وافرة منها انهُ يريد ان يتزوج او يُورث الارض او ليهرب من مكروه لحقهُ او سيلحقهُ في عشيرتهِ او ليجد مرعى لغنمهِ . على ان القصير في نزولهِ بين العرب يلتزم بفرض عزيز شريف لا يلتزم بهِ الطنيب . وبهذا الواجب يتميَّز عن الطنيب . اذا حدثت غزوة وسرق الغازون ونهبوا ما يختص بتلك العشيرة النازل في حماها فانهُ مضطرٌ بان يسعى ليرجع ما سُرق . على انهُ لا يدافع الَّا عن صاحب الخيمة التي على يمينهِ وشمالهِ . فيرسل رسلًا الى عشيرتهِ او يذهب هو بنفسهِ الى الغازين ويرجوهم ان يردّوا ما سلبوا . ويقول: « انا قصير فلان وفلان من شان مَن خلق الدنيا ووضع الجارَ فيها . من شان مَن امر بحفظ الجار والمحاماة عنهُ ردّوا ما سُلِبَ لهُ من الغنم والابل » . فيردّون السلوب دون تأخير ويخشون من الملامة والحروب اذا أبوا ان يردّوا ما طُلب

وربَّما خاف على نفسهِ من مكروه يتزل بهِ اذا سار الى عشيرتهِ فيرسل وفودًا باسمهِ . ذلك يكون اذا هرب القصير من عشيرتهِ لقتل او لسرقة او لغير ذلك . فهما أُخذ يُرَدُّ للقصير اكرامًا لهُ واحترامًا . ويسعى ايضًا عند غير عشيرتهِ ويكرمونهُ لانهُ قصير اي عاجز وقاصر . وان أبوا ان يردّوا ما سلبوا تُضرم نيران الحرب لان القصير يستنهض عزائمها على إخاء العار . والعشيرة مهما كانت معادية لهُ تلتزم بالنزول في ساحات الوغى كي تعيد الشرف المفقود . والعرب يكرمون قصيرهم اكرامًا جزيلًا ولا يخونونهُ ابدًا . ومن غريب ما يجري ان بعضًا من التجار يأتون وينزلون في خيم العرب او عند الشيخ فيبيعون بضاعتهم من ملبوس ومأكول فيلتزم الشيخ بان يجمع لهم الديون من المديونين . واذا تعصَّب المديون وامتنع عن الدفع يضطر الشيخ الى الدفع « كي يبيض وجههُ امام القصير » واذا سُرق شيء من القصير عن جهل او عن تعمُّد يُردُّ لهُ حالًا . فهذا هو القصير وواجباتهُ وحقوقهُ

٩ حق العرض

العرض هو شرف المرأة وجمالها وتاج يكلل هامتها بالحسن والرواق وبدونه تصبح مرذولة تعيسة . فالبادية هي بلاد قد تنزهت عن المنكرات وأضحت اشرف من المدن الغناء التي يظهر فيها المنكر ظهورا جليا . فالنساء في القفر على وجه العموم كما اكد لي بعض الثقات هن عفيفات يتجنبن الطرق السافلة وابواب المحرمات . وقد اكد لي عبد الهدي وشيوخ السلط ان النساء البدوية تسير وحدها في البادية اياما كثيرة ولا احد يعارضها او يتعدى عليها . على ان اكبر الجرائم التي تحدث في البيداء هي الخطف . وكم من شيخ بكى على ابنته التي كانت سعادته في هذه الدنيا غابت عن انظاره في ليلة داجية فبات يطوي الايام والاوقات بالحزن والبكاء . ويقولون : « فلانة خطفت فلاناً » ولا يقولون فلان خطف فلانة . واليكم وصف ذلك اذا رام المجرم ان يتزوج بابنة على غير ارادة ابيها يتفق معها ويتواعدان الى زمان ومكان محدودين واذا ستر الليل الارض يأتي الى الابنة ويركبها وراء فرسه ويهرب بها الى بلاد بعيدة فهذا ما يسمى خطفا . وربما وجدها واردة على عين ماء او في حقل فخطفها . وهذا الخطف كثير جداً فلا يمر شهر الا ونسمع خبراً كهذا بين الاعراب وذلك يتأتى من اهل الابنة الذين يريدون ان يبيعوا بناتهم حين زواجهن . فان الابنة عند العرب وفي شرقي الاردن تكون لمن يقدم اكثر مالا وحلالا ولذلك يصير الزواج عن غير حب ووداد

ولا بد المجرمين في هذه الامور عقاب شديد فاذا خطفت ابنة من قبيلة قريبة يقوم اهلها واقاربها يستنهضون عزائمهم كي يرجعوا الشرف المفقود والابنة المسلوبة ولهم الحق بأن يصنعوا ما يشاؤون لانهم مدة ايام ثلاثة يسوغ لهم ان يقتلوا الخاطف ويهلكوا غنمه ويهدموا خيمته ويذبحوا فرسه ولا يبقون لانفسهم شيئا اي انهم يسلبونها اسلا كما امر الرب موسى ان يفعل بنو اسرائيل ببعض مدن الوثنيين واذا ابقوا لانفسهم شيئاً يرذلون ويهانون

على ان اهل المخطوفة يحل بهم الخجل والعار فيرحلون وينزلون وحدهم فانهم يؤثرون الغربة والعزلة على وطنهم الاصلي كما حدث لاهل مادبا فانهم رحلوا من

الكرك لأن المجالي خطفوا ابنةً لهم فنزلوا بخربة مادبا . ومن يقدم على الفواحش بنفسٍ راضية يردعهُ الشيخ مع وجوه العشيرة مراتٍ عديدة فان أبى يحكمون عليه بالنفي فدمهُ مطلولٌ لا يُطالَب بهِ ابدًا فلا ريب ان هذه العادة الشريفة تحمل العرب على تجنب المنكر خوفاً من العقوبات

ومما يخفف الجرائم في البادية خوفهم من العار والهوان لان البادية لها آذان تسمع وعيون تنظر فلا يخفى فيها خافٍ ولا سرٌ مكتوم فلا شيء إلَّا وسيظهر عاجلًا او آجلًا . قال احدهم : ان اهل البادية كالمشرفين على رأس الجبل يراقبون الحركات والاشارات الخفيَّة . ومن وُجد في جرمٍ فظيع تقطع اشجارهُ وتحرق بيادره وكثيرًا ما احرقوا خيمة الجاني ونثروا رمادها في الهواء

ولقد اتخذ العرب وسائط فعَّالة لمنع الفواحش فاذا احسَّ أبٌ بجرم ابنتهِ يقطع رأسها ويعلقهُ على رمحٍ ويطوف بهِ في كل القبيلة قائلًا : « هكذا يعاقب المجرم » ومنهم من يَشدها حيةً فيغطيها بالتراب الى ما فوق رأسها ومنهم من يغمرها بالتراب الى رأسها فقط فتأتيها الوحوش وتذيقها من العذابات أمرَّها ومنهم من يسقيها السُّمَّ الزعاف ومنهم من يضع على جسمها دبساً او عسلًا ويتركها فريسة الذباب تموت اشنع الميتات ومنهم من يأخذها الى الفلاة فيضربها ضرباً أليماً ثم يربطها بأوتادٍ في الارض الى ان تفترسها الحيوانات الضارية . وقد سمعنا ان رجلًا ألقى ابنتهُ في بئرٍ عميقة ومنهم من ربطها الى شجرةٍ برداء وكان وجهها الى نور الشمس فاحترقت وماتت من وَقدات الأنوار واكثر الناس يقتلونها بلا شفقة بسيف حادٍ او برصاصة في رأسها . وذكروا لنا أن أباً في فصل الشتاء القارس ترك ابنتهُ خارج المحلَّة على صخرةٍ صمَّاء وكانت الامطار تهطل والرعود تقصف والثلوج تسقط فماتت وقد جمدت دماؤها ويبست اعضاؤها

٩ ص الملح

لم يخطر ببال انسان ان للملح حقاً واليكم وصف هذا الحق : اذا حلَّ ضيفٌ في خيمة احد الرجال يهتمّ رب البيت بتهيئة الطعام وإيلام مأدبة مناسبة فينال المسافر نصيبهُ ثم يسافر فاذا لقيهُ في الطريق سارق فسلبهُ ماله فانهُ يعود الى خائفهِ ويقول

له : « ترى يا شيخ فلان اني ما لحتك واكلت من طعامك ولم يختلط طعامك الى الآن بطعام غيرك أتطمع لي الحق من سارقي » . فيقول الضائف : « نعم قد أكل من ملحي فهو اهل بالحماية » . فيستطي فرسهُ ويصحب معهُ بعض الابطال ثم يقتفون آثار السارق ويرسلهم فِرَقًا فرقًا الى ان يقف على حقيقة الحال فيسكون السارق ويأمرونهُ بردّ اضعاف ما سرق ويقول له : « اقعد للحق واردد ما سرقت لأكل ملحي » فاذا ابى بعد ثالث مرة ان يعيد الشيء المسروق يأتي الشيخ الى المضرب وينهب ما وجد في خيمة السارق من غنم وشاء وقمح ومال واذا وجد راعي السارق يعدو الشيخ فيأخذ ما يشاء من مواشيه . واذا لقي نساءه صادرات من المورد حاملات قِرَبهنَّ على ظهورهنَّ يشقّ القرب ولا يبالي ويداوم هذه الاعمال الى ان يرجع السارق ما سرق

ومن غريب امورهم انهُ يستحلّون السرقات الكبرى كالغزو ويخشون من السرقات الطفيفة فالسارق الكبير يُمدح بالاشعار البديعة والسارق الصغير يُعاقب شديدًا فان عرار بن جازي قد اتى بالسارق وربطهُ بشجرة وضربهُ بالسياط حتى سالت دماؤه . وقد اجاد من قال وهو عليان الشاعر : السرقة تحلّ للاغنياء وتحرم على الفقراء . ومن ظريف ما حدث منذ زمانٍ بعيد ان قاضي السلط دُعي يومًا الى مأدبة عند قفطان بن حامد فهرع الشيخ قفطان وأتى بنعجةٍ من غنم غيره وأصلحها له عشاء ولما تمّ إصلاحها قال له : « تمّ يا قاضينا وكُلْ » فقال القاضي : لا تأكل من مال الحرام . فجرد قفطان سيفهُ وقال : « ان لم تأكل يُدرج رأسك درج الحصاة في السيول انت تبتلع الرشوة الكبيرة وتخاف من هذه الطفيفة أنا غدًا اردّ من غنمي كالذي اخذت وانت لا تردّ ما اخذت »

١٠ من الوصي

إن الأسرة المتحدة الاغصان لا تحتاج الى وصيّ اذ تقوم بحاجاتها بنفسها فالاب لا يهتمّ بمستقبل أولاده لأن الاهلين يدافعون عن حقوق الأيتام وروابط الدم . وصلة الرحم هي وثيقة بهذا المقدار حتى ان الاب يموت في فرج وسرور ولا يهتم باولاده لعلمهِ بانهم في ذمّة اهلهِ واقاربهِ وعشيرته غير ان الاعراب كثيرًا ما يستثنون امهم ويختارون رجلًا مشهورًا ببسطوته ونفوذ كلامهِ ويوكلونهُ باولادهم

وتكون ساعته رهيبة محزنة حينما يمتدُّ الاب الفقير على سرير الموت ويدير بانظاره الى اليمين والشمال ولا يرى عيناً تبكي لبكائه او قلباً يحنُّ ويشفق على ابنائه على انهُ يحيي في فكره ذكر بعض الاحباء قد عهد فيهم المروءة والكرم فيصرخ قائلاً : « فلان هو وكيلكم يا أبنائي » . فبتلك الكلمة يضع اولاده تحت سلطة الشيخ ويقول للحاضرين : « ترى اني موصي بحياتي طوق حمام من رقبتي لرقبته من اليوم الى آخر يوم أطلعت خطيئتي وخطيئتها برقبته » فان كان الوصي غائباً وحينما يسمع بتلك الوكالة يقول : « نعم صرتُ اباهم وامهم في كل ما يطرأ عليهم » . وان كان حاضراً يقول : « على عيني ورأسي » . فاذا اصاب الأولاد من الطوارق والاحزان فعلى الولي ان يمدَّ لهم يد المساعدة . وكثيراً ما يكلون الوصي من غير عشيرة او من غير مذهب . فقد عاينّا بعض الاعراب يوكلون اولادهم بأسرة نصرانية

وعند العرب طريقة سهلة يجرون عليها في مثل هذه الحالات فان الفقير اليتيم يحمل هديَّة ثم يذهب الى خيمة الولي ويقول له : « عليك وعلى عيالك حتَّ الوصاة انا وانت بجناح الله » . فيقبل الشيخ الهدية ويصبح وليَّه فيدافع عن حقوقه في كل أمر يحدث له

ولنراجع ايضاً ما سطَّرناهُ في مقالتنا السابقة حيث اثبتنا ما يترل بالمنيَّل والشارد من الذلّ والهوان (المشرق ١٧ | ١٩١٤ | : ٦٦٣) وما يعطى القاضي من الوزقة (١٧ : ٦٦١) . ولقائد الغزوات او عقيدها حقوق سنذكرها ان شاء الله في فصل الحرب عند العرب

هذا ما عثرنا عليه في رحلاتنا الى مضارب العرب أوردناهُ تتمة لمقالتنا الاخيرة وتفكهة للخواطر والاذهان

تمت